تاريخ المسيحية السريانية

بقلم هيلين مور–ڤان دن بِرخ

قدمت الدكتورة هيلين مور–ڤان دن بِرخ سلسلة من المحاضرات في كلية اللاهوت الإنجيلية بالقاهرة في الفترة ما بين 16 إلى 19 يناير 2019. وما يلي المحاضرة الثانية والثالثة مِن سلسلة المحاضرات، والتي تم تحريرها بهدف الإيجاز والوضوح. هيلين تعمل كأستاذة للمسيحية الشرقية ومديرة معهد الدراسات الشرق أوسطية في جامعة رادبود Radmoud، بمدينة نايمخن Nigmegen.

مخطوطة سريانية من القرن السادس لجدول كنسي يبين للقارئ ما الذي سيقرؤه من الأناجيل.

شكل 1

المحاضرة الثانية

الكنائس السريانية في العصور الإسلامية

(600–1400 م)

نبدأ اليوم في دراسة الكنائس السريانية خلال العصور الإسلامية من 600 م حتى 1400 م. كانت الخلافة الأموية الخلافة الثانية بعد موت محمد، والتي أصبحت بالنسبة للمسيحيين السريان مهمة جدًا. فبعد الصدمة الأولي للفتح الإسلامي، بدأ المسيحيون يدركون أنه في الخلافة الإسلامية الجديدة ربما سيتمتعون بحرية أكثر من تلك التي كانت تحت سلطة الإمبراطورية البيزنطية. لم يبالِ الحكام المسلمون بملة رعاياهم، سواء كانت خلقدونية أو ميافيزية أو نسطورية، وبالتالي أصبحت الحياة أسهل لهؤلاء الذين لا ينتمون للغالبية الخلقدونية البيزنطية، سواء شرقية سريانية أو غربية. ولم يدركوا سوى لاحقًا أن الإسلام سيشكل تحديات جديدة للمسيحيين.

ومع أن بعض المسيحيين اعتنقوا الإسلام، ظل معظم المسيحيين السريان مخلصين للإيمان ومع ذلك، مثل بقية المسيحيين، وجَبَ عليهم إيجاد طريقة جديدة للتواصل مع الدولة. ومع الفتح الإسلامي اختفى الحد القديم بين الإمبراطورية الفارسية والبيزنطية. وفي هذه البيئة سياسية–جغرافية الجديدة لم تعد هذه الكنائس حبيسة الإمبراطورية الفارسية أو البيزنطية. فعلى سبيل المثال بدأت الكنيسة الأرثوذكسية السريانية في الاستفادة من هذا الوضع الجديد، وتوسعت ناحية شمال العراق رغم أن هذه المنطقة في الغالب هيمنت عليها كنيسة المشرق فيما مضى. وفي نفس الوقت ورغم أن كنيسة المشرق بدأت في التوسع، كانت حركتها ناحية الشرق كذلك، لكن نحو وسط وشرق آسيا. وفي القرن السابع وصلت حتى الصين شرقًا. وفي نفس الفترة تقريبًا اتجهت المجموعة السريانية الثالثة وهي الكنيسة المارونية ناحية الغرب حيث بدأت في مزاحمة الكنيسة الأرثوذكسية السريانية، واللتان يتمتعان معًا بالكثير من الأمور المشتركة، ولكنها أرادت أن تميز نفسها عنها. وفي هذه الفترة استقرت البطريركية المارونية في وادي قاديشا في لبنان.

في هذه الفترة طورت الكنائس الثلاث ليتورچياتها بدرجة كبيرة. وتعد كلمة قاديشا *Qadisha* كلمة سريانية مهمة وتعني "مقدس." ولو أنك تستمع إلى الليتورچية السريانية، قد تكون هذه الكلمة واحدة من أول الكلمات التي يمكنك أن تتعلمها. ويعد تطوير الكنائس الثلاثة لليتورچياتها الشيء الوحيد الذي يمكن تأريخه إلى هذه الفترة الاستثنائية. في الحقيقة قد يكونوا طوروها قبل ذلك بكثير، ولكن تعد هذه الفترة الأولى التي لدينا فيها هذه الليتورچيات مكتوبة.

كان هناك ثلاثة طقوس سريانية: سرياني غربي وشرقي وماروني. وكل منها كان به مجموعة من الترانيم والصلوات والقراءات الكتابية وصلوات الإفخارستيا الخاصة به. والذي وجدناه أن السريانيين الغربيين، وهم الكنيسة السريانية الأرثوذكسية، الأقرب للّيتورچية البيزنطية. كنيسة المشرق والتي نطلق عليها سريانية شرقية، حتى الآن محتفظة بالكثير من شكلها وعناصر أخرى لم توجد في أي من الكنائس الأخرى. فعلى سبيل المثال تفتقد الليتورچية الشرقية السريانية لكلمات تأسيس الأفخارستيا كما نُظمت من النصوص الموجودة في الأناجيل وكورنثوس الأولى. فيما مضى كان يُعتقد أن الكنيسة السريانية الشرقية "فقدت" هذا الجزء من الكلمات المحددة الذي تشترك فيه كل الليتورچيات الأخرى في الشرق والغرب. في الوقت الحالي، رغم أن العلماء يميلون نحو الاعتقاد بحقيقة أن الشكل السرياني الشرقي أقدم، وأن المسيحيين الآخرين أضافوا هذه الفقرة المحددة في وقت لاحق. وتشير الليتورچية السريانية الشرقية "لآداي وماري" أولًا إلى آلام المسيح وموته وقيامته، ثم بعد ذلك استدعاء الروح القدس لـ"يحل على هذه القرابين."

أصبحت كتب اللّيتورچيّات في هذه الفترة شائعة جدًا. ومع أن الجزء الأكبر من المخطوطات الباقية حتى يومنا هذا من فترة لاحقة، لكن لدينا على الأقل مخطوطة واحدة من القرن السادس، وفي الحقيقة ربما تكون حتى أقدم من هذه الموجودة في الشكل (انظر شكل1). تُبين لك هذه المخطوطة أي جزء من الأناجيل عليك قراءته، وكيف أن هذه الأجزاء مرتبطة ببعضها البعض. فعلى سبيل المثال تعرض هذه المخطوطة كيف أن القصص الموجودة في لوقا تتطابق مع تلك الموجودة في مرقس ومتى. لاحظ الثمرة المرسومة على الصفحة، هذا جزء مهم من اللغة المجازية التي استخدمتها الكنيسة.

الأدب السّرياني في الفترة الإسلامية (600–1400 م)

بدأ السريان المسيحيون في الفترة الإسلامية المبكرة في كتابة أدب رؤيوي. فرغم أنهم لم ينظروا بالضرورة للإسلام في حد ذاته على أنه تهديد لديانتهم، إلا أن التعاقب السريع للحكام والعنف الذي جلبوه معهم جعل الكثير من المسيحيين السريان يعتقدون أنهم يعيشون في الأزمنة الأخيرة. وربط بعضًا من مؤلفيهم التهديد الذي فرضه الغزو الإسلامي بما تعلموه من سفر دانيآل، وهو أن العالم سيرى تعاقب للممالك الذي سيدشن نهاية الأزمنة. وفي الحقيقة اعتقد البعض أن الخلافة الإسلامية ستكون آخر مملكة. وبعد مرور عقود من العيش داخل الإمبراطورية الإسلامية أدركوا أن الإسلام نجح في خلق إمبراطورية مستقرة، وكان عندهم أمل، بعد الصدمة التي حدثت بسبب الفتح، أن الأشياء سترجع إلى وضعها الطبيعي. ورُويدًا رُويدًا بدأ الاهتمام بالرؤياويات يختفي.

دعوني الآن أذكر أهم مؤلفي الكنائس السريانية. أولًا، هناك المثقف الموسوعي يعقوب الرهاوي (تُوفّي: 708 م)، والذي كتب عن الوعظ والترانيم والتاريخ. ومن المهم دراسته لنستكشف الكنيسة السريانية الأرثوذكسية الشرقية. وكان إسحق النينوي (القرن السابع) من الكنيسة الشرقية. وكان من الكتاب الأوائل الذين كتبوا مقالات صوفية ورهبانية. وفي هذه الفترة أصبحت الرهبنة، والتي تتضمن كلًا من رهبان يعيشون في مجتمعات رهبانية أو هؤلاء الذين يعيشون بالقرب من هذه المجتمعات كنساك، مهمة بشكل

متزايد. وفي هذه البيئة، أصبح إسحق مؤلفًا مشهورًا جدًا، ليس فقط داخل كنيسة المشرق ولكن بين الرهبان السريان الغربيين والبيزنطيين. ورغم أن كنيسة المشرق في الغالب تناسته (مع أنها الآن في مرحلة إعادة اكتشافه)، إلا أنه في الغالب مُتذكر ومُقدر في هذين التقليدين هذه الأيام. هنالك كاتب آخر مهم سرياني شرقي من القرن السابع وهو غبريال القطري. وكتب شرح مهم جدًا لليتورچية الكنيسة المشرقية، ويعد واحدًا من أفضل المصادر لفهم التطورات التي حدثت في الليتورچية خلال هذه الفترة. وأخيرًا، أريد أن أذكر باواي الكبير Bawai the Great (تُوفّي: 627–628) الذي كان واحدًا من أشهر بطاركة الكنيسة المشرقية، ويعتبر مهمًا بسبب إعطائه الكنيسة شهرتها في هذه الفترة، وكونه لاهوتي قام بتأليف لاهوت الكنيسة المشرقية.

وتتضمن النصوص المعروفة من هذه الفترة سير القديسين Lives of Saints والتي تبدأ مع مات مريم Mat Maryam ومات شموني Mat Shmuni ومار ماري Mar Mari ومار توماس Mar Thomas (تعني كلمة "Mar" "سيد" ولكنها أيضًا تعني "قديس"، بينما كلمة Mat استخدمت مع الأنثى وتعني "قديسة"). وهناك أيضًا سير القديسين الخاصة بالتقليد السرياني، كمار بهنام Mar Behnem ومات سارة Mat Sarah ومار أوجين Mar Augin ومار زيا Mar Zaya والربان هرمزد Rabban Hormizd. كما نجد أيضًا قصائد حوارية، والتي بنيت على النماذج السابقة لأفرام Ephrem ونرساي Narsai. ويوجد في هذه القصائد حديثٌ متبادل سلس جدًا بين شخصيتين رئيسيتين، واللتين تتحدثان مع بعضهما بعضًا في بيوت شعرية متبادلة. ولأن هذه الأبيات مكتوبة من منظور المتكلم (الراوي)، يمكن أن تستخدم هذه القصائد في تمثيل قصة على المسرح والتي فيها يقدم الدورين ممثلون مختلفون. على سبيل المثال، كثيرًا ما كان يعرض الحوار بين يسوع ومريم أو يسوع واللص على الصليب في اثنين الفصح. كان القصد من كل هذه القصائد المعروفة مساعدة الناس البسطاء في فهم قصص الكتاب المقدس، ومثل سير القديسين كانت تُقرأ هذه القصائد وتنسخ وتترجم في هذه الفترة واستمرت هكذا حتى يومنا هذا.

وبعضًا من أسماء تلك القصص مألوفة لكل المسيحيين حول العالم ومُبجلة منهم، ولكن هناك أسماء أخرى خاصة أكثر بالتقليد السرياني، ومثالًا على ذلك اسم شموني. وبحسب التقليد السرياني، أنها كانت أم للسبع أبناء المكابيين. وقُتِلوا هؤلاء بشكل مُريع على يد جنود الملك أنطيوخوس (عادة ما يُعرف بأنطيوخوس أبيفانيس الرابع. ولد نحو 215 قبل الميلاد ومات سنة 164 ق. م). وهي قديسة معروفة خصوصًا لأنها كأم عانت بشدة بسبب موت أبنائها أمام عينيها. وأصبحت بالاشتراك مع ماري رمز الأم المعذبة في الأوقات الصعبة. وهناك قديسون آخرون معروفون مثل مار بهنام ومات سارة ومار أوجين ومار زيا من شمال العراق. وبحسب التقليد اعتنق سارة وبهنام المسيحية وقُتلوا بسببها، في حين أن مار أوجين ومار زيا كانا راهبين لهما أهمية بالغة في تأسيس الرهبنة في هذه المنطقة. قديس معروف آخر وهو الربان هرمزد الذي أسس الدير المشهور بالقرب مما تعرف اليوم باسم القوش، العراق، وهذا الدير يحمل اسمه إلى هذا اليوم.

نص رهباني من القرن الخامس عشر

شكل 2

وتظهر أيضًا أسماء القديسين في فيما يُعرف بـ"الطاسات السحرية" والتي كانت تستخدم كأشياء حمائية في تقليد المنطقة الآرامي (المسيحي، اليهودي، المندائي). وبعض من التمائم التي استخدمتها المجموعات كانت متشابهة مع بعضها بعضًا. كما أن الأشياء التي من أجلها الطاسات المنقوشة كان من المفترض أن توفر الحماية هي: المرض، والعُقم، وفقدان المنازل والأزواج، وأي شيء آخر مفزع قد يحدث. اختلفت الطاسات عن بعضها بعضًا في النص المكتوب (استخدام النص المكتوب الذي كان مستخدمًا في مجتمع معين)، وفي استخدام قديسين معينين—القديسون المسيحيون في الطاسات المسيحية والآخرون في طاسات الديانات الأخرى. والطاسات التي ربما كان لها أصول في المنطقة قبل صعود المسيحية بفترة طويلة أوقفت عن الاستخدام في وقت ما مجهول في المستقبل، لكن الكثير مما كان مفترضًا أن يفعلوه أعزى فيما بعد للتعاويذ. وهذه أيضًا تستدعي القديسين في تمائم حمائية. ويبرز قديس واحد: القديس جورج/جرجس (مار جرجس بالسرياني) الذي عادةً ما يُرسم على حجاب حمائي على أنه يحارب الشيطان.

تُذكرنا هذه التعاويذ بأنه من خلال إعادة النظر إلى تاريخ الكنائس السريانية سنجد دائمًا الاثنين: الدين الرسمي والشعبي أو "العامِّي": ديانة الليتورچية والمخطوطات المكتوبة بشكل رائع، وديانة أقل تعقيدًا تناقلت عن طريق الكهنة الذين خرجوا من عامة الناس. في الحقيقة كان هؤلاء الكهنة هم الذين يكتبون الآيات الحمائية.

الخلافة العباسية (750–1258)

في العصر العباسي وعلى عكس فترة الخلافة الأموية، وجدت كنيسة المشرق نفسها فجأة في مركز الأحداث. فيما مضى لم تكن كنيسة المشرق داخل دائرة اهتمام أصحاب السلطة. رغم أن العباسيين نقلوا مركز إمبراطوريتهم إلى مدينة بغداد المشيدة حديثًا والتي كانت قريبة جدًا من سلوقية قطيسفون Seleucia Ctesiphon حيث كان مركز كنيسة الشرق لفترة طويلة. بعد ذلك تم نقل البطريركية إلى بغداد، وسريعًا أصبح بطريرك الشرق أهم كاهن مسيحي في البلاط الملكي.

عمل معدني سرياني من القرون الوسطى ويرجع هذا العمل إلى القرن الثاني عشر أو الثالث عشر

شكل 3

وبزغت هنا فترة ازدهار فكري وعلمي عظيمة، ساهم فيها رجال كنيسة المشرق المتعلمين وأيضًا بدرجة أقل الكنيسة الأرثوذكسية السريانية والكنيسة اليونانية الأرثوذكسية بشكل ملحوظ. وكانوا منخرطين في نقاشات جوهرية حول اللاهوت واللغة والفلسفة والطب والعلم لأنه في مسقط رأسهم كان لهم باع طويل من المعرفة، وأيضًا لأن الكثير منهم يقرأ اليونانية، وهي أهم لغة في العلوم حتى هذا الوقت. وهذا الإرث اليوناني من المعرفة أصبح مهمًا جدًا في التطورات اللاحقة لكلا اللاهوتين الإسلامي والمسيحي. وساهم المسيحيون السريان من خلال الترجمة من اليونانية إلى السريانية، وبعد ذلك من السريانية إلى العربية. وكان أسهل لهم أن يترجموا من السريانية إلى

اليونانية عنه من الترجمة من اليونانية إلى العربية مباشرة؛ لأنهم أصبحوا بالفعل معتادين على الترجمة من اليونانية إلى السريانية. أيضًا كانت الترجمة من السريانية إلى العربية سهلة نسبيًا لأن اللغات متقاربة. والذي يمكن ذكره حنين بن إسحاق (809–873)، رئيس بيت الحكمة، وهي دار علمية كانت مركزًا لأعمال الترجمة. لكن لم يكن المسيحيين مؤثرين فقط بسبب معرفتهم. فهناك قادة مسيحيين مثل البطريرك تيموثاوس الأول، الذي ترأس الكنيسة من العقد الثامن من القرن الثامن الميلادي حتى العقد الثاني من التاسع الميلادي، والذي كان يُدعى بانتظام إلى مجلس الخليفة كواحد من مستشاري البلاط وكمُنَاظِر للقضايا اللاهوتية. وتعطينا خطاباته فكرة عن أهمية مكانته. وفي أماكن أخرى كتب تيموثاوس عن توسع كنيسة الشرق للهند، وسط آسيا والصين.

ومع أن كنيسة المشرق بالتحديد استفادت من هذه الفترة، إلا أن الكنيسة السريانية الأرثوذكسية أيضًا انتفعت من اشتباكات هذه الفترة الفكرية. وقبيل انتهاء العصر العباسي، في القرن الثاني عشر والثالث عشر أنتجت الكنيسة السريانية الأرثوذكسية فن مرئي ذات جودة عالية عن ذاك الذي أنتجته كنيسة المشرق، في المخطوطات والأعمال المعدنية كالإناء الموجود بالشكل 3. وكما نرى استغل فن هذا الوقت كل عناصر ما يطلق عليه عادة "الفن الإسلامي" لهذا الوقت، ولكن ربما أنه أكثر تأثرًا بفن بلاد ما بين النهرين أو بوجه عام الشرق الأوسط من الفن الإسلامي. وكما يمكن للمرء أن يرى، عند النظر بإمعان، الإناء عليه صورة جميلة لمريم المتوجة مع يسوع الجالس على ركبتيها. وكما ذُكر أعلاه أنها الفترة التي فيها اتسعت كنيسة المشرق بعيدًا نحو آسيا. وفي بداية العقد الثالث من القرن العشرين وجد اليسوعيون المرسلون في الصين مسلة (عمود حجري) سُميت مسلة شيان Xian Stele (تُعرف أيضًا باسم "المسلة النسطورية" والتي يرجع تاريخها إلى 781 (انظر الشكل 4). ومعظم النقش الموجود على المسلة مكتوب بالصينية، ولكن في الأسفل يوجد أسماء مكتوبة بالسريانية. وتسجل المسلة أنه كان هناك مرسل يدعى ألوبن Alopen الذي أتى الصين محملًا بالكتب ونجح في تحويل بعض الصينيين إلى المسيحية. وما يقرب من مائة عام بعد ألوبن نُصبت هذه المسلة لإحياء ذكرى عمله وتمدح في الحكومة القائمة آنذاك من أجل حمايتها للمسيحيين.

مسلة شيان والتي اكتشفت في سنة 1625 بالقرب من شيان Xian، الصين

شكل 4

وعندما أُكتشفت المسلة في القرن السابع عشر، صدّق بعض الناس بالفعل أنها أصلية—كان يُنظر إليها على أنها طريق اليسوعيين ليعضّدوا عملهم في الصين. إلا أنه عندما تم الربط بين هذا الاكتشاف وخطابات تيموثاوس (المُشار إليها أعلاه) وعندما أُكتشفت مسلات مشابهة وعدد من النصوص (وجِدَت أيضًا في مخطوطات لاحقة) والتي تؤكد على تواجد كنيسة المشرق في الصين، أصبح العلماء أكثر فأكثر مقتنعين أنها في الحقيقة كانت أصلية. ومن المقبول الآن على نطاق واسع أنه كان مجتمع مسيحي في هذه المنطقة من القرن السابع حتى نحو سنة 1000. ومن هذه اللحظة أصبح السياق السياسي في الصين صعب على المسيحيين

على نحو متزايد. إلا أنه عندما غزا المغول معظم الصين في القرن الثالث عشر، كانت كنيسة المشرق مرة أخرى قادرة على الازدهار في هذه المنطقة.

دعوني أضيف بعض الملاحظات على فترة المغول في القرنين الثالث عشر والرابع عشر. فخلال هذا الوقت تحرك مركز كنيسة المشرق من بغداد بثبات في اتجاه الشمال نحو مراكز سلطة المغول—مناطق يوجد بالفعل بها الكثير من المجتمعات المسيحية. واحدة من أهم مدنهم مراغة Maragha التي توجد الآن في محافظة أذربيجان أحد المحافظات الإيرانية.

في العموم خلال هذه الفترة أُوجدت الكنائس السريانية على طول القوس الشمالي للهلال الخصيب، وأيضًا كان هناك مجتمعات مسيحية في إيران، ووسط آسيا، والهند. ومع اقتراب نهاية فترة المغول، ومع أن الأوضاع أصبحت صعبة جدًا على الكنائس السريانية الموجودة في وسط وشرق آسيا، وأصبحوا متمركزين بشكل ملحوظ في المناطق الشمالية لشمال غرب إيران وشمال العراق وتركيا الشرقية الحاليين. إلا أن الكنسية السريانية الأرثوذكسية الموجودة أيضًا في شمال العراق والشرق التركي حافظت على بعض من وجودها في أجزاء كبيرة من الأناضول وسوريا واللذين يتضمنان منطقتي لبنان وفلسطين الحاليتين.

الفترة الطويلة لهذه الخلافة والتي تمتد من 750 حتى سقوط بغداد 1258 شملت أيضًا عصر الحروب الصليبية. وبالنسبة للكنائس السريانية كانت هذا المرة الأولى التي كان لهم فيها تواصل مباشر ومكثف مع الكنيسة الرومانية الكاثوليكية، وهذا الشيء سأعود إليه لاحقًا.

الأدب السرياني في العصر العباسي

قراءات سريانية من الإنجيل

(ماردين، القرى التاسع)

(https://www.vhmml.org/readingRoom/)

شكل 5

عاين أدب العصر العباسي تطورات ثقافية عديدة لم تشهدها الفترة المبكرة. الشيء الوحيد الذي أصبح مهمًا جدًا ألا وهو القواعد اللغوية والقواميس. وهذه هي الفترة الأولى—أكثر منه في الفترة اليونانية المبكرة—التي فيها يتم استخدام اللغتين العربية والسريانية بجانب بعضهم بعضًا في الكنائس السريانية. ونتيجة لذلك احتاج العلماء قواعد اللغة والقواميس حتى يتمكنوا مِن تعليم اللغتين والترجمة بينهما. وخلال هذه الفترة كتب الكثير من المتعلمين المسيحيين في كلا اللغتين العربية والسريانية، ومن المحتمل أنهم تحدثوا أيضًا اللغتين العربية والسريانية (أو على الأقل بعضًا من التراكيب اللغوية لكل من هاتين اللغتين). وهذا لا يعني بالضرورة أن الكنيسة كانت مكونة من مجموعات عرقية مختلفة ("عرب" و"سريان")، مع أنه من المحتمل أن بعض متحدثي السريانية في ذلك الحين تحولوا إلى العربية في هذا العصر. علاوة على ذلك استخدم الناس لغات مختلفة لأغراض مختلفة، ومن المرجح أن النصوص التي كُتِبَت بالسريانية كانت لقُرّاء مختلفين عن الذين كُتِبَت لأجلهم النصوص العربية. فربما قد كُتِبَت النصوص الأقدم للكهنة، أما النصوص التي كُتِبَت فيما بعد كانت لأجل العلمانيين.

يعتبر الحسن بن بهلول واحد من أهم مؤلفي هذه الفترة، وهو أسقف عاش في القرن العاشر في بغداد، وقام بكتابة قاموس سرياني عربي. وهنالك أيضًا توما المراغي Thomas of Maragha، الذي كان راهبًا وبطريركًا لكنيسة المشرق من الفترة 837 حتى 850، وأعطانا مصدر تاريخي مهم وهو *كتاب الرؤساء Book of Governors*. وكان هذا الكتاب عن رؤساء الأديرة، وكذلك يقدم تاريخًا خاصًا بالرهبنة. ويعرض الشكل 5 مخطوطة ترجع إلى هذه الفترة، وهذا النص الجميل من الإنجيل يسمى قراءة كتابية طقسية Lectionary وفيه تُجمع قراءات الإنجيل لكل يوم أحد.

المحاضرة الثالثة

الإمبراطورية العثمانية

منزل تاجر في دمشق

شكل 6

نتحدث اليوم عن الفترة العثمانية، ومن بين الأمور التي سنناقشها: نظام الملة millet system، والعلاقة مع الكاثوليك الرومان الذين للمرة الأولى يكون لهم حضور قوي في الشرق الأوسط، والقانون المدني للمسيحيين. وسنولي اهتمام خاص لكنيسة المشرق والكلدان والهند.

دعوني أولًا أقول بعض الأشياء عن الدراسات العثمانية، حيث أصبحت الدراسات العثمانية خلال العشر سنوات إلى العشرين سنة الأخيرة مجال نشط جدًا. وهذا لأن الأرشيفات العثمانية أصبح سهل الوصول إليها ومعلومات كثيرة تم تحويلها إلى رقمية، وهذا سمح للباحثين من كل أنحاء العالم ليفهموا جيدًا كيف حكمت الإمبراطورية العثمانية رعاياها. كان العثمانيون بيروقراطيين جدًا؛ لذلك سجلوا كل شيء. وبنهاية الدرس سنقرأ واحد من خطابات مراسلة الإمبراطورية العثمانية حتى نعرف كيف كانت تعمل. أنا أيضًا سأولي اهتمام للمخطوطات التي وُجِدَت في مكتبات الكنائس السريانية، وهذه المخطوطات كانت أساس بحثي. وكل هذه المخطوطات بها حرد متن أو كولوفون (نقوش في الصفحة الأخيرة تبين من هو الكاتب ومكان الكتابة والكاهن المنوط بالأمر، وفي بعض الأحيان الذين ساهموا بالتكلفة). وهذه الكولوفونات مصدر مهم لفهم ديناميكية هذه الفترة الكنسية.

انطلاقًا من كل الأبحاث الشيقة جدًا التي تُجرى، إن ما نحتاج إليه هو زيادة إدماج. يميل فرادى الباحثين إلى تبني منظور أحادي: العثماني، أو الأرميني، أو القبطي، أو السرياني، أو بعض من منظورات أخرى. ما يجب فعله هو دمج هذه المنظورات في صورة واحدة حتى نصل لفهم جيد حول ماذا عَنَت الفترة العثمانية لكل مجموعاتها الفرعية. وهذا الشيء معقد جدًا لأنك تحتاج لأناس يعرفون لغات مختلفة كثيرة تشتمل على اللغة التركية العثمانية، والعربية، والأرمينية، واليونانية، والسريانية، والفارسية ولغات أخرى. ولذلك على الباحثين في هذا المجال (معظمهم يعرف القليل فقط من هذه اللغات) أن يطلعوا على أعمال بعضهم بعضًا ويحاولوا أن يعرفوا أين نحن الآن. وبعدها يكون لدينا، كما قلت في المحاضرة الأولى،

الاختلاف بين اللاهوتيين والتاريخيين. وإلى حد بعيد، لم يكن اللاهوتيون مهتمين جدًا بالفترة العثمانية. أود القول إنه يجب عليهم أن يكونوا مهتمين؛ لأن الفترة العثمانية خطوة مصيرية نحو العصر الحديث. لكن بكل بساطة لكي نفهم الأحداث المعاصرة والمفاهيم اللاهوتية لكنائس المشرق والشرق يحتاج المرء إلى دراسة الدولة العثمانية. وفي مطلع القرن التاسع عشر وسع العثمانيون حكمهم ليغطي المقاطعات العربية وهي المناطق التي وجد معظم المسيحيين السريان أنفسهم فيها. وهذه المناطق تضم ما نطلق عليه اليوم العراق، وسوريا، ولبنان والجزء الشرقي من الأناضول وجبال هكاري Hakkari mountains. وبعد السنوات الأولى الصعبة من محاربة وتغيير النظام، أصبحت الأمور سريعًا أكثر استقرارًا، وأسس العثمانيون حكم مركزي قوي بمعنى الكلمة في اسطنبول. وتأكدوا أن الولاة ظلوا متصلين بمركز الحكم؛ لأنه كان يتم تغييرهم بشكل منتظم. في بعض الأحيان كان هناك سلالات محلية حاكمة، لكنه كان هناك سيطرة من مركز الحكم. لم يكن العثمانيون مهتمون بتحويل الناس إلى الإسلام؛ لكن في الغالب كانوا مهتمين بالسلام والاستقرار. والأكثر من هذا إن دخل ضريبة الجزية من المسيحيين شكل إضافة جيدة لدخل السلطنة والذي ساهم أيضًا في استقرار بشكل محدد لكل المجموعات في الإمبراطورية.

هذا الاستقرار تضمن أيضًا زيادة التبادل التجاري مع الغرب بالإضافة لإيران والهند. واستعان التجار الغربيون من المسيحيين العثمانيين واليهود لمساعدتهم على فهم القوانين المحلية والثقافة واللغة. في المقابل استفاد هؤلاء المسيحيون واليهود بنظم ضريبية جيدة عن الذين لم يعملوا مع الغربيين. وفوق كل شيء عنى هذا أن المجتمعات المسيحية واليهودية كان بها مال أكثر مما مضى. مقارنة بالقرن الرابع عشر، جلب القرن الخامس عشر استقرارًا للمسيحيين، كمية إضافية قليلة من الثروة واضطهاد محلى ليس بنفس مقدار ذلك الذي كان سابقًا.

رغم هذه الظروف الإيجابية، ظل هناك اختلاف أساسي بين المسلم وغير المسلم. والقواعد التي تحكم غير المسلم يشار عادة إليها باعتبارها نظام *الملة*، الذي سنتحدث عنه خلال دقيقة. وعلينا معرفة أن العثمانيين عملوا تمييزًا آخر، وهذا التمييز مهم لمناقشتنا، وهو التمييز بين الرعايا والعشائر (قبائل شبه مستقلة). والرعايا كانوا الناس التابعين، معظمهم من المسيحيين، الذين كانوا يُعاملون في نظام *الملة* على أنهم أهل الذمة (أهل الكتاب المشمولين بالحماية). ويشير تعبير عشائر إلى القبائل المستقلة والتي تتضمن الأكراد لكن أيضًا المسيحيين. وعاشوا في مناطق كانت في الغالب خارج نطاق الحكم العثماني المباشر، وحكمها حكام محليين الذين كانوا يدفعون الجزية للعثمانيين. وهذا كان صحيحًا أيضًا في المناطق الكردية حيث هيمن الأغا الكردي على القبائل الكردية. ومعظم المسيحيون في هذه المنطقة كانوا أيضًا يعتبرون كقبائل وكانوا جزءًا من الاتحادات القبلية الكردية. ومثل الكرديين كان مسموح لهم حمل السلاح (في بعض الأحيان حُرم على المسيحيين تحت قواعد الملة) واستطاعوا أن يقاتلوا جنبًا إلى جنب مع الكرديين إذا لزم الأمر. بوجه عام، رغم حقيقة أن الكرديين كانوا عمومًا المسؤولين، إلا أن المسيحيي هكاري في كنيسة المشرق سُمح لهم بمزيد من الاستقلال عن أعوانهم من نفس الديانة في أي مكان آخر في الإمبراطورية العثمانية أو الفارسية. لاحظ أنه سار هذا بنفس الطريقة مع المارونيين في جبال لبنان ومع بعض المسيحيين البدو في الأردن.

الملل الثلاثة والمِلة باشي خاصتهم ("رئيس المِلة")

نظام الملة أسسه العثمانيون على نظام الذمة الأقدم. وهم قسموا غير المسلمين إلى ثلاث مجموعات كبيرة. ضمت المجموعة الأولى اليهود—كان هناك يهود، وهم الذين تم تهجيرهم من أسبانيا والبرتغال في سنة 1492—الموجودين في إسطنبول وفي أي مكان آخر. المجموعة الثانية وهي مجموعة الأرثوذكسية الشرقية. أصبح بطريرك اليونانيين الأرثوذكس في اسطنبول حاكمًا لكل الكنائس الأرثوذكسية الشرقية، والتي تتضمن تلك التي تقبع تحت لواء بطريركيات أنطاكية وأورشليم والإسكندرية. والمجموعة الثالثة كانت تضم الأرمينيين، وأصبح بطريركها رئيسًا لكل المسيحيين الأرثوذكس المشرقيين (الميافيزيين). واعتُبر أن القادة الثلاثة لهذه المجموعات يمثلون الجميع من غير المسلمين في الإمبراطورية.

آيا صوفيا، إسطنبول

شكل 7

لذلك لم يكن المسيحيون السريان لهم تمثيل مباشر في البلاط. واعتبر المسيحيون السريان الأرثوذكس كجزء من المجموعة الأرمينية. ولم تكن في الحقيقة كنيسة المشرق جزءًا من أي من هذه المجموعات، وفي الحقيقة لأن معظمهم كان موجود في جبال هكاري وكانوا يتعاملون أكثر مع الكرديين، لم يكونوا أيضًا على الإطلاق جزء من مجموعة الأرثوذكس اليونانيين. ومع هذا ورغم أن نظام الملة يبدو أنه دقيق جدًا ومنظم، إلا أن في تطبيقه كان يعمل بشكل براجماتي نوعًا ما. وفي الحقيقة الكثير من القادة الدينيين قَدِموا إلى إسطنبول فقط لكي يرفعوا شكواهم ويدافعوا عن قضاياهم أمام السلطان هناك. وفي بعض الأحيان ستستغل البطريركيات السريانية مساعي البطريرك الأرميني، ولكن إذا اشتركوا في خلاف مع البطريرك الأرميني، سيذهبون في الحال إلى السلطان مباشرة. كان للنظام العثماني قواعد واضحة جدًا، ولكن كان هناك طرق كثيرة ليتبع القواعد. وأثناء الإمبراطورية العثمانية أصبحت الرشوة والفساد مهمان بشكل متزايد. فإذا كان لديك الكثير من المال كان من الممكن دائمًا أن تعد شيئًا يعمل لمصلحتك الشخصية. على سبيل المثال، إذا أردت بطريركًا جديدًا (الذي دائمًا ما يحتاج لتصديق من الباب العالي في إسطنبول) قد تستطيع أن تستخدم تأثيرك حتى تحوز على المرشح المصدق عليه. بالطبع يوجد الكثير من الجوانب السلبية لنظام كهذا؛ لأنك لم تكن تعرف إذا كان الشخص المناسب سيكون في المكان المناسب. لكن، في نفس الوقت سُمِحَ للمسيحيين بقدر لا بأس به من مساحات يمكن فيها التفاوض حتى ينظموا مجتمعاتهم بدون أن يكونوا محكومين مباشرة من العثمانيين.

بطريركية اليونانيين الأرثوذكس

اسطنبول

شكل 8

تعليق على الصور (الأشكال 7-9). الصورة الأولى هي لآيا صوفيا في إسطنبول (شكل 8)، والتي أصبحت مسجدًا عندما فتح العثمانيون إسطنبول (وفيما بعد حولتها الجمهورية التركية إلى متحف). الجامع الأزرق وهو

الجامع الرئيسي في إسطنبول بني بُعَيد استيلاء العثمانيون على القسطنطينية، وبُنيَ هذا الجامع على غرار نموذج آيا صوفيا. تباعًا أصبح الجامع الأزرق نموذج للمساجد التركية في جميع أنحاء العالم.

شكل 8 و9 هما للمركز الحالي للكنيسة اليونانية الأرثوذكسية والتي ما زالت في إسطنبول، وهي أيضًا مقر البطريرك برثلماوس. وتحتوي على كنيسة البطريرك، وهي كنيسة صغيرة ولكنها مزخرفة بشكل جميل بالذهب.

كنيسة أرثوذكسية يونانية

شكل 9

الدين، المجتمع والقانون (المدني)

بلا شك تعرفون جميعًا، أنه قبل النظام العثماني كان مجتمع الفرد يحدد أحواله المدنية. لذلك إذا كنت مسيحي فإنك تصبح خاضعًا لقواعد المجتمع المسيحي، خصوصًا فيما يتعلق بالزواج، الوصاية، والطلاق والميراث. وكان نفس الشكل يحدث في الفترة العثمانية، لذلك بشكل أساسي كان الكاهن المسيحي الذي يقرر الكثير من الأمور في القانون المدني. ومع ذلك ما لا يعرفه الناس دائمًا أنه في الفترة العثمانية كان المسيحيون يذهبون أيضًا إلى محاكم الشريعة الإسلامية، خصوصًا عندما لا يحصلون على النتيجة التي أرادوها من أساقفتهم. وانطبق هذا الأمر بصورة خاصة على قضايا الطلاق التي في الغالب لم تكن تُمنح عادة في المجتمعات المسيحية. والشخص الذي فشل في الحصول على طلاق من أسقفه سيذهب لقاضي المحكمة (الشريعة) حتى يحصل على طلاق. ولم يكن على المسيحيين التحول إلى الإسلام من أجل هذا، ولكنهم ظلوا مسيحيين. لذلك عملت محاكم القضاة كمحاكم عامة للمجتمع كله. وكانت تُستخدم أيضًا محاكم القضاة عندما كان يوجد صراع بين متنازعين من كنائس مختلفة. لذلك كان النظام القضائي مرنًا أكثر مما يميل الناس إلى الاعتقاد.

وتتعلق نقطتي الأخيرة بكيفية عمل هذا النظام في الفترة العثمانية. وكان هذا نظام جماعي مع مكانة بارزة للقادة الكهنوتيين. غير أن القادة العلمانيون لعبوا أدوارًا متميزة، لأنهم الأشخاص الذين كان القادة الكهنوتيين يرجعون إليهم في الأمور المالية والسياسية.

وفي القرن التاسع عشر بعد الإصلاحات، اشترط العثمانيون على المجتمعات المسيحية أن يكون لها "مجلس علمانيين" والذي يحكم مجتمعاتهم بالتعاون مع الأساقفة والبطريرك، وهذا صنع خصيصًا لأجل التداخل المعقد بين المجالات الدينية والعلمانية فيما يتعلق بقيادة المجتمعات المسيحية. كان القادة العلمانيين في المدن والمناطق الريفية في الغالب التجار المحليين والنبلاء من منطقة معينة، في حين أن بين العشائر المسيحية كان قادة العشائر هم القادة، والذين كانوا نظراء الأساقفة والبطاركة.

وترون (الصورة 10) شواهد قبور بطاركة كنيسة المشرق في هكاري. وهذه الشواهد تمتد من بداية الفترة العثمانية حتى القرن السابع عشر. وإن هذا الدير حيث توجد هذه الشواهد الآن هو دير الربان هرمزد الذي يقع بالقرب من القوش، وهذا الدير الآن جزء من معالم الكنيسة الكلدانية (الرومانية الكاثوليكية).

أضرحة بطاركة كنيسة الشرق الموجودة بدير الربان هرمزد

شكل 10

العثمانيون والغرب

خلال الفترة العثمانية أصبح الغرب مهمًا في المنطقة على نحو متزايد. وقال بعض الناس إنه من القرن السابع عشر وصاعدًا، أخذت الإمبراطورية العثمانية في الانحدار بسبب هذا التأثير الغربي. أو نعبر عن هذا بالعكس بأنه بسبب أن العثمانيين كانوا ضعفاء جدًا، كان الغرب قادرًا على التقدم بسرعة إلى الشرق. مع ذلك أعتقد أن الأمور كانت أكثر تعقيدًا وإثارة للانتباه عن ذلك. أولًا، من الواضح أن العثمانيين استفادوا من التبادل بين الغرب والشرق. وثانيًا، تعد كلمة انحدار مصطلح صعب للاستخدام في السياق العلمي؛ لأنه من ثم يجب عليك أن تكون دقيقًا فيما يتعلق بالمظاهر التي كانت بالضبط في قمتها ثم انحدرت لاحقًا. ومع أن الفرد يستطيع رؤية أن العثمانيين في الغالب أصبحوا ضعفاء عسكريًا ودبلوماسيًا في القرن التاسع عشر، إلا أنه لم يكن كذلك في الفترة المبكرة، أي القرن السابع عشر. وفي الفترة المبكرة، والتي نتكلم عنها هنا، دخلت المنطقة إرساليات كاثوليكية ودبلوماسيون وتجار بمختلف أنواعهم. وقرر العثمانيون أن يدرجوا الغربيين (في ذلك الوقت الفرنسيون) في نظامهم الطائفي كمجموعة "الفرنجة" الخاصة بهم. لكن تلقت هذه المجموعة امتيازات خاصة بالمقارنة بالمسيحيين الآخرين. وهذا كان يعني أن الفرنسيين يكون لهم مكانة أعلى من المسيحيين في الإمبراطورية العثمانية. وأهم هذه الامتيازات أنهم لم يكونوا مطالبين بدفع الجزية. ومن الأمور التي حدثت أن المسيحيين واليهود المحليين بدأوا في العمل للشركات الغربية، وسُمِحَ لهم غالبًا بنفس التخفيضات الضريبية كالغربيين. وهذا جعل من المفيد جدًا لهؤلاء المسيحيون أن يصبحوا منخرطين مع الغربيين.

كنيسة سريانية كاثوليكية، دمشق

شكل 11

دعوني أوضح نقطة لغوية صغيرة: هؤلاء الذين كانوا يُطلق عليهم *تُرجُمان* والتي تعني "مترجم." بشكل ملحوظ يرجع أصل هذه الكلمة إلى اللغة الآرامية من جذر الكلمة targem (قارن أيضًا "targum" ترجوم—من الترجمة الآرامية اليهودية للكتاب المقدس) والتي عبر اللغة العربية انتهى بها المطاف في اللغة التركية. هؤلاء المترجمون، الذين أصبحوا من جوانب عديدة وسطاء بين ثقافتين، كان يجب عليهم معرفة التركية والعربية والفارسية واللغات الأوروبية.

موكب الجمعة العظيمة في Via Dolorosa طريق الآلام بأورشليم

شكل 12

عبر هذه الاتصالات بعض من هؤلاء المترجمون وعائلاتهم قرروا أن يصبحوا كاثوليك. وقال البعض أنهم أصبحوا كاثوليك بسبب المال، وفي بعض الأحوال كان هذا صحيحًا، ولكن كان هنالك عدد ليس بالقليل من المسيحيين الذين لم ينخرطوا بطريقة مباشرة مع الدبلوماسيين أو التجار تحولوا أيضًا للكاثوليكية. ولذلك، أعتقد أن الجوانب الاقتصادية لا تفسر كل الجذب الذي حملته الكاثوليكية لمسيحيين الشرق أوسطيين. كانت النساء هي أعطته الإرساليات الكاثوليكية اهتمامًا أكثر في وعظهم وكتاباتهم عن الأرثوذكسية في هذا الوقت. أيضًا، أحب المسيحيون المحليون الطريقة التي بجّل بها الكاثوليك العذراء مريم، بما في ذلك من استخدام المسبحة الوردية والصور الجميلة. وبشكل ملحوظ تحول بعض المتعلمين كالكهنة والأساقفة إلى الكاثوليكية. وبلا شك فهموا ما كان لديها لتقدمه للكنيسة الأرثوذكسية.

روما والشرق الأوسط

تدريجيًا أدت القوة المتزايدة للغربيين إلى اشتراكهم في السياسية العثمانية، خصوصًا فيما يتعلق بالمجتمعات اليهودية والمسيحية. ووفقًا لحدود سياسية–جغرافيةأكبر، بدأت الدول الأوروبية المختلفة في "حماية" مجموعات مختلفة في الإمبراطورية. حمى الفرنسيون الكاثوليك، والبريطانيون اليهود والدروز وفيما بعد البروتستانت، والروس الأرثوذكس. لذلك لم تعد الصراعات بين هذه المجموعات وبين أي مجموعة أخرى والحكومة العثمانية مسألة محلية. ويمكن للصراعات الدينية أن ترى الآن كجزء من سياق سياسي–جغرافي كبير؛ لأنه كان هناك دول كثيرة منخرطة. على سبيل المثال، عندما كان يوجد صراعات تخص الكاثوليك، كان القنصل الفرنسي في حلب يتدخل فيها، والقنصلان الفرنسي والروسي سيشتركان عندما كان يوجد نزاعات على الحدود في كنسية القبر المقدس بأورشليم. والتي تصبح في القرن التاسع عشر مشكلة حقيقية.

وكان للإرساليات الكاثوليكية هدفًا واضحًا جدًا عندما قَدِموا للشرق الأوسط. ومن منظورهم أن كل مسيحيِّي الشرق الأوسط مهرطقين ومنشقون، وكانوا يعتقدون أن الطريق الوحيد لإنقاذهم من هرطقاتهم هو إحضارهم للكنيسة الأم، أي الكنيسة الكاثوليكية الرومانية. لذلك حاولوا ليس فقط أن يحولوا فرادى الأشخاص بل مجتمعات كاملة لطوائف أخرى، وتوقعوا أساقفة وبطاركة أن يخضعوا للبابا كرأس للكنيسة الحقيقية. وعادة نجحوا في تحويل كنيسة كاملة أو جزء من كنيسة. في نفس الوقت، مع ذلك كانت الإرساليات الكاثوليكية إلى حد ما مرنة في السعي لتحقيق أهدافها، فسمحوا للمجتمعات الكاثوليكية الجديدة في أن يحتفظوا بمعظم شعائرهم وفي استخدام لغة ليتورچيّتهم. والكهنة المتزوجون قُبلوا إلى الرعيّة. وكل أنواع الأشياء الأخرى والتي كانت تخص هذه الكنائس سُمِحَ بها شريطة أنها لا تتعارض مع التعاليم الكاثوليكية. نتيجة لذلك، بالكاد يلاحظ الناس العاديون، إذا أصبحت كنيسة كاثوليكية؛ لأن التغييرات كانت ضئيلة للغاية. ولكن بالطبع كانت كبيرة لأنه في النهاية هذه الكنيسة والمجتمع سينتميان إلى مجموعة أخرى؛ سينفصلون عن الكنيسة الأرثوذكسية، وحتمًا سيكون هناك كل أنواع النزاعات على المال والسلطة. ومن المفهوم أن

الكنيسة الأرثوذكسية آنذاك أصبحت غاضبة من أنشطة الإرساليات هذه وابتدأت تقاوم. ومن الملاحظ أن الروسيين بدأوا في تدعيم الأرثوذكس في المنطقة بالتعليم والمال لكي يساعدوهم في التصدي للكاثوليك.

كانت الأماكن المقدسة سببًا آخر للكنيسة الكاثوليكية لكي تصبح نشطة جدًا في الشرق الأوسط. ولهذا السبب كان من المهم للكاثوليك أن يكونوا حاضرين في الشرق الأوسط، خصوصًا في فلسطين. وسعوا لأن يخلقوا مساحة للحجاج الكاثوليك في كل الأماكن المقدسة؛ لأن الأماكن المقدسة كانت أيضًا مهمة جدًا للكنائس الأرثوذكسية، وهذا أصبح نقطة مهمة في الخلاف خلال الإمبراطورية العثمانية.

سبب أخير لعمل الكاثوليك المرسلي الواسع في الشرق الأوسط كان جراء الحروب الدينية في أوروبا والتي جعلت الكاثوليك يتقهقروا. قسم الإصلاح المسيحية في أوروبا وهذا حفز الكنيسة الكاثوليكية على المشاركة في إرساليات إلى الشرق الأوسط بالإضافة إلى أمريكا، والفلبين والصين والهند.

- الكنيسة الكلدانية
  1552: يوحنا سولاقا
  1681: يوسف الأول
  1830: يوحنا هرمزد—عاش في القوش
- الكنيسة السريانية الكاثوليكية
  1551: أغناطيوس عبد الله
  1662: أندراوس أخيجان
  1783: ميخائيل جروة
- الكنيسة المارونية
  1736: مجمع جبل لبنان
- كنيسة السريان الملبار (مجمع ديامبر 1599)

كنائس "سريانية" كاثوليكية

شكل 13

الكنائس الكاثوليكية "السريانية"

ها هي قائمة (شكل 13) للكنائس السريانية الكاثوليكية: الكنيسة الكلدانية، الكنيسة السريانية الكاثوليكية، الكنيسة المارونية، كنيسة السريان الملبار (في الهند). تلك هي الكنائس الكاثوليكية الأربعة والتي نتجت عن العمل الكاثوليكي المرسلي. وكانت الكنيسة المارونية الكنيسة الأكثر نجاحًا؛ لأنه بين المارونيين لم يبقَ هناك أي كنيسة منفصلة خارج الكنيسة الكاثوليكية: كل المارونيين أصبحوا جزءًا من الكنيسة الكاثوليكية. وكان بدأ انتقال المارونيين إلى الكنيسة الرومانية الكاثوليكية بالفعل أثناء فترة الصليبيين، ولكن هذا الاتصال قد تم تأكيده وتعزيزه في القرن الثامن عشر.

والمسعى الكاثوليكي الثاني الأكثر نجاحًا كان مع الكنيسة الكلدانية، حتى ولو كان بداياته معقد نوعًا ما. وقد كانت المحاولة الأولى للاتحاد في القرن السادس عشر، ولكن في ذلك الوقت لم يفهم المناصر من كنيسة المشرق بالضبط ما كان ينطوي على أمر أن يصبح المرء جزءًا من الكنيسة الكاثوليكية. وبعد حوالي ثلاثين عامًا اختفت تأثيرات المحاولة الأولى، والبطريرك والأساقفة رجعوا إلى كنيسة المشرق. وفي القرن السابع عشر كانت هناك محاولة ثانية. ورغم أن هذه المحاولة كانت محلية ومحدودة جدًا، إلا أن الأسقف يوسف، والذي أصبح أول بطريرك للكنيسة الكلدانية الجديدة، فهم حقًا ما كان يحدث لاهوتيًا. ونشر هو وخلفاؤه بنشاط مطبوعات؛ حتى يُعزّزوا الفهم المحلي للاهوت الكاثوليكي. وفي عام 1830 أخذ البطريرك

يوحنا هرمزد—عاش في القوش—جزءًا كبيرًا من كنيسة المشرق وجلبه إلى الكنيسة الكلدانية الكاثوليكية. وأصبحت الكنيسة الكلدانية الكاثوليكية من ذلك الوقت كبيرة ككنيسة المشرق تقريبًا.

وهذا لم يحدث قط للكنيسة السريانية الكاثوليكية، والتي انبثقت من الكنيسة السريانية الأرثوذكسية: فهي أصغر بكثير من نظيراتها الأرثوذكسية حتى هذا اليوم. وكان هناك ثلاثة قادة ذات أهمية، الذين حاولوا أن يجعلوا جزءًا من الكنيسة السريانية الأرثوذكسية يُصبح كنيسة سريانية كاثوليكية. أولئك الأشخاص كانوا أغناطيوس عبد الله (1551)، وأندراوس أخيجان (1662)، وميخائيل جروة (1783). وكل واحد منهم نجح بشكل محدود، بحيث إنه بحلول القرن الثامن عشر كان هناك كنيسة سريانية كاثوليكية مستقرة، ولو أنها صغيرة للغاية. وكانت متمركزة في لبنان وشمالي العراق بدلًا من شرقي تركيا وشمالي سوريا.

كان هناك عالمان فرنسيان وهما يوسف كرباج وفيليب فارج اللذين اقترحا أن بسبب استقرار الدولة العثمانية تزايد المسيحيون في العدد بشكل سريع عن المجتمعات الأخرى—وذلك بالأرقام المطلقة وبالمقارنة مع الآخرين على حد سواء. وأنه مثير للاهتمام فعلًا تصور أن المسيحيين كانوا يزدهرون نوعًا ما، ولكن بعدما تم نشر هذا، بدأ الكثير من العلماء يتساءلون إذا كان هذا صحيحًا. وكان تفسيرهم مبنيًا على السجلات العثمانية، وهذه السجلات أحصت السكان في مناطق معينة فقط. ما نفكر فيه الآن أنه معظم الزيادة في أعداد المسيحيين في مناطق معينة يمكن أن تعزى إلى هجرة المسيحيين من الريف إلى المدن. ويبدو أنه بينما كانوا في الريف لم يتم إحصاؤهم على الإطلاق، ولكن عندما انتقلوا إلى المدن تم إحصاؤهم. وهذا يوحي إلى أن العدد ارتفع، ولكن في الحقيقة كانت هجرة داخلية وليس نمو حقيقي. والمسألة لم تُحل تمامًا، ولكن يوافق معظم الباحثين الآن على أن المسيحيين كانوا يزدهرون نوعًا ما ولكن ليس كما أعتقد كرباج وفارج. مع هذا تظهر تعداداتهم بوضوح أن المسيحيين كانوا ينتقلون إلى المدن أكثر من الفترات المبكرة. وتنَقُّل الناس إبان الفترة العثمانية إلى المدن يفسر حقيقة أن معظم المسيحيين في الشرق الأوسط يعيشون اليوم في مدن. والاستثناء من هذا مصر حيث ما زال هناك عدد لا بأس به من المجتمعات المسيحية في الريف. ولكن في الأماكن الأخرى كسوريا كانت هناك حركة بطيئة في الفترة العثمانية والتي استمرت إلى القرن العشرين وأسفرت عن أغلبية ساحقة من المسيحيين الذين يعيشون في المدن. ولأنهم يعيشون في مدن، مال المسيحيون عادة إلى أن يكونوا حرفيين، وعندما بدأت الإرساليات الغربية في الدخول إلى المنطقة، قابلوا مسيحيين محليين في المدن التي اختاروا أن يقيموا فيها. وفيما بعد عندما فتحت الإرساليات المدارس كان للمسيحيين حق الالتحاق بسهولة في هذه المدارس بنسب عالية عن

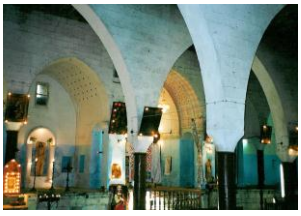

كنيسة كلدانية في ديار بكر

شكل 14

المجتمعات الأخرى. أخيرًا، بسبب أن المسيحيين عاشوا في مدن؛ مالوا عمومًا إلى التمتع بمستوى عالٍ من الرفاهية عن تلك التي تمتعوا بها العصور السابقة.

هذا منزل (انظر الشكل 15) تاجر غني من حلب، والذي يوجد اليوم في برلين. وكل المنزل تقريبًا تم نقله إلى برلين. ونرى هنا طراز زخرفة إسلامي، ولكن بعض الصور تُظهر بوضوح على أنها مسيحية.

تعد الهند مهمة جدًا بالنسبة لتطور الكاثوليكية في الشرق الأوسط. وكان في الهند أن البرتغاليون تقابلوا مع المسيحيين السريان. وعندما بدأوا في الاكتشاف، حوالي سنة 1500، انتهى بهم الحال أيضًا على الساحل الغربي للهند حيث تقابلوا مع المسيحيين السريان. وقدموا معلومات للبرتغال عن هذه المجموعات الكبيرة من المسيحيين. وفي نفس الوقت كتب هؤلاء المسيحيون خطابات إلى العراق ليخبروا عن هؤلاء البرتغاليين، مشيرة إلى أن البرتغاليين كانوا أشخاص غربيين ذو نفوذ، وأنهم كانوا إيجابيين جدًا من نحو المسيحيين، وأنهم كانوا يدعمون المسيحيين في مقابل المجموعات الأخرى. وكان هناك العديد من تبادل الخطابات بين عامي 1500 و1550، والتي ساهمت كلها في تكوين صورة إيجابية عن البرتغاليين والكاثوليك. لذلك عندما ذهب أول راهب من كنيسة المشرق لروما ليصبح أول بطريرك كلداني، أعتقد أن ذلك يرجع إلى معرفته بهذه الخطابات. ويدعم ذلك حقيقة أنه ذهب لمقابلة السفير البرتغالي في روما، وفيما بعد أرسل واحدًا من مطارنته إلى الهند. ومن هذا الوقت فصاعدًا، في نفس الوقت تقريبًا مثل إخوانهم في الدين الموجودين في العراق، أصبح السريان المسيحيون في الهند على صلة وثيقة بالكاثوليك.

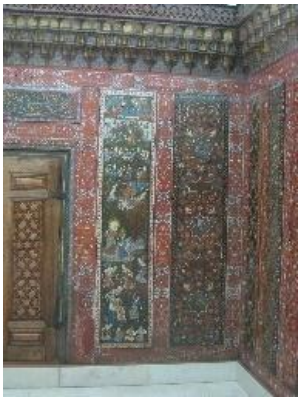

زخرفة داخلية في منزل مسيحي من حلب (موجودة الآن في برلين)

شكل 15

كنيسة هندية، وهذه الكنيسة انحدرت من كنيسة المشرق

شكل 16

كانت الإرساليات البرتغالية أقل حنكة وحرصًا من إرساليات الشرق الأوسط. وفيما بعد في القرن السادس عشر بدأوا في ممارسة الضغوط على المسيحيين السريان ليتبعوا بشكل وثيق الشعائر اللاتينية بدلًا من شعائرهم السريانية. وبنهاية القرن السادس عشر، أجبرت الإرساليات الهنود المسيحيين على حرق الكثير من كتبهم السريانية حتى يجعلوا الكنيسة رومانية كاثوليكية تمامًا. وهذا أدى إلى صراع شرس، وجزء من المسيحيين السريان في الهند تركوا الكنيسة الكاثوليكية؛ ليبدأوا كنيستهم الخاصة بهم.

وهذه مسألة معقدة في تاريخ المسيحيين السريان؛ لأن بعضهم أصبح جزءًا من الكنيسة السريانية الأرثوذكسية بدلًا من العودة إلى كنيسة المشرق التي أتوا منها. وكانت النتيجة أنه يوجد اليوم العديد من الكنائس السريانية في الهند التي نشأت من كنيسة المشرق: الكلدانيين (السريان الملبار)، كنيسة المشرق، السريان الأرثوذكس، السريان الكاثوليك. وفيما بعد، في القرن التاسع عشر والعشرين، انشقت مجموعات أخرى عن هذه الكنائس. بعض منهم أصبح بروتستانتي، والآخر ظل مستقل. لذلك يوجد تقريبًا عشر كنائس

سريانية مختلفة في الهند. لاحظ أن الهند بها عدد كبير من السكان، وهذا يعني أنه يوجد الكثير من المسيحيين السريان. وبالتالي، على سبيل المثال، المسيحيون السريان الأرثوذكس في الهند أكبر في العدد من المسيحيين السريان في الشرق الأوسط.

في هذه الصورة (شكل 16) كما ترون، واحدة من هذه الكنائس السريانية وصليب أمامها. وهو نموذج للصليب الذي كان لديهم قبل قدوم الكاثوليك. وإذا نظرت بدقة إلى قاعدته سترى أنها تبدو هندية الشكل، مع الأفيال وزهرة اللوتس. وأيضًا على مبنى الكنيسة نفسه يوجد زخرفة لحيوانات لن تجدها على الكنائس السريانية في الشرق الأوسط.

دعونا نعود إلى كنيسة المشرق والعراق. كان عدد المخطوطات الهائل التي تم إنتاجها في هذه الفترة بالنسبة لي واحد من الأسباب التي دفعتني لأبدأ في البحث عن هذه الفترة. قبل عام 1500 كان هناك عدد قليل جدًا من المخطوطات، ولكن العدد تزايد في القرن السادس عشر، وبدرجة أكبر في القرن السابع عشر، بل تزايد أكثر في القرن التاسع عشر (انظر الشكل 17). كان القرن الخامس عشر قرنًا صعبًا، ومن المحتمل أن تكاليف تصنيع المخطوطات كانت مرتفعة جدًا. بالإضافة إلى أن الكثير من مخطوطات هذه الفترة تم تدميرها خلال الحرب. ومن أواخر القرن الخامس عشر وصاعدًا، بدأ الوضع في التطور، وكان لدى الناس المال ليستبدلوا المخطوطات التي فُقِدَت، ثم أعادوا تزويد كنائسهم وأديرتهم بها. وفي أقدم فترة، كان الكُتَّاب الذين أنتجوا المخطوطات معظمهم من الرهبان، ولكن فيما بعد كان معظمهم كهنة متزوجون، الذين أقاموا عمل عائلي من إنتاج المخطوطة. وقام العلماء بالتعرف على شجر العائلة، والذين يتضمنوا بما لا يقل عن 30 شخصًا خلال ثلاثة أو أربعة أجيال كانوا كلهم كتبة. لذلك فيما يبدو كان هناك طلب كبير على عملهم. كل أنواع الناس ساهموا بالمال لإنتاج هذه المخطوطات: أحيانًا أشخاص منفردين، أو أحيانًا مجموعات من الأشخاص، أو أحيانًا أم وبنتها، أو أحيانًا أثنين من الأزواج، أو أحيانًا أسقف. لذلك كان هناك كل أنواع الناس المختلفة الذين ساهموا بالمال اللازم لإنتاج هذه المخطوطات. الكثير من هذه المخطوطات بسيطة جدًا، لكن هذه القراءة الكتابية من الإنجيل (انظر الشكل 18) واحدة من أجمل مخطوطات هذه

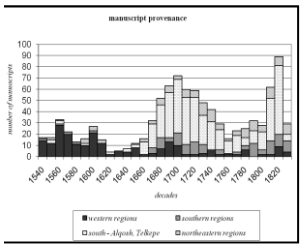

مكان اكتشاف المخطوطة

عدد المخطوطات

العقود

- المناطق الغربية
- المناطق الجنوبية
- المناطق الشمالية الشرقية
- جنوب القوش، تللسقف

شكل 17

الفترة. والمخطوطات التي قاموا بإنتاجها استعملت الخط الشرقي الجميل وتم زخرفتها وتزينها بشكل رائع. وحوالي نصف هذه المخطوطات بشأن الليتورچية والتي كانت أهم شيء بالنسبة للناس ليكتبوا وينسخوا

شكل 19
قراءة كتابية من الإنجيل، القوش 1679 (Ms Jer. Syr 1,) بطريركية اليونان الأرثوذكس)

شكل 18

ويستثمروا أموالهم فيها. النصف الآخر من المخطوطات يحتوي على عظات، وقواعد لغوية، وغير ذلك.

ويعتقد الكثير من الناس أن كنيسة المشرق لا تسمح بالصور. وهذا إلى حد ما صحيح. على سبيل المثال، ليس لديهم أيقونات في كنائسهم كمعظم الكنائس الأرثوذكسية الأخرى. ولكن لديهم صور في مخطوطاتهم. ويعتقد الباحثون أنهم استخدموا الأيقونات في كنائسهم في فترات سابقة، ولكن قرروا في وقت ما فيما بعد الكف عن استخدامهم. وفي الفترة العثمانية كانت في الأغلب الصليب البسيط الذي كان يستخدم كنقطة تركيز التمجيد أثناء القداس، وغالبًا إلى جانب القراءة الكتابية من الإنجيل والتي توضع على منجلية (حامل) أمام المذبح.

النصوص وقيد الختام (حرد المتن)

تعتبر قيود الختام Colophons مهمة جدًا في فهمنا لهذه الفترة والثقافة. وقيد ختام المخطوطات (سواء كان في الشرق الأوسط أو أوروبا اللاتينية) هي ملاحظات الكُتاب، وقد تكون هذه الملاحظات مختصرة أو في بعض الأحيان طويلة والتي فيها يخبرون القارئ عن صنع المخطوطة وعادة يضيفون أشياء أخرى. وإعداد قيد المخطوطة يختلف من تقليد مخطوطة إلى أخرى. وسيذكر كتاب كنيسة المشرق أن المخطوطة تم الانتهاء منها في تاريخ محدد، ومكان محدد، وفي عهد هذا أو ذاك البطريرك والأسقف. وعادة يضاف إليها اسمه ونسب العائلة واسم (أسماء) راعي (رعاة) المخطوطات.

استخدم كُتاب المخطوطات صيغ المصطلح السرياني لكلمة "مبارك" *brikha* (قارن المصطلح العربي بركة "blessing") للكهنة، والأماكن، والتواريخ ("في شهر أيَّار المبارك"). وهكذا نتعلم من هذه القيود أن الكتابات نفسها اعتُبرت بركة للناس، ودفع المال من أجل أن تكتب المخطوطات اعتُبر بركة. إن قيد الختام المبين في الشكل 19 طويل جدًا، وأنه يمتد لصفحات عديدة، واستخدم الكُتاب حروف أصغر في إنتاجه. وفي هذه المخطوطة بالتحديد يوجد أيضًا بعض الملاحظات اللاحقة، والتي ظهرت في أحوال كثيرة

عندما كان يوجد صفحات فارغة في نهاية المخطوطة. وفي قيود ختام هذه الفترة، تضمنت المخطوطة المهمة، والتي أنتجها كاتب مشهور، قيود ختامية طويلة وتسهب في تمجيدهم لله والبطريرك، والمكان الذي تم إنتاج المخطوطة فيه. إجمالًا تعطينا قيود ختام هذه الفترة تصورًا عما اعتقده الناس في ذلك الحين أنه مهم وجميل.

ويضيف أحيانًا الزائرون لكنيسة أو دير ملاحظاتهم الخاصة بهم لمخطوطة، كذلك قد يضيف الأشخاص الذين تطلعوا إلى المخطوطات شيئًا إليهم. إن المخطوطة المبينة في الشكل 19 تم إنتاجها؛ لكي يتم إحضارها إلى أورشليم. وفيما بعد عندما سيأتي الحجاج القادمين من العراق إلى أورشليم سيرون هذه المخطوطة وسيكتبون ملاحظات قليلة فيها. ويؤكد هذا على الاعتقاد بمدى أهمية الحج إلى أورشليم.

قيد ختامي آخر (تجميع كامبريدج، القوش 1729) يُستهل بـ"تم إنجازها بعون الثالوث المبجل ومستحق التسبيح... هذا كتاب المعلم خميس khamis بالإضافة إلى العديد من الترنيمات الأخرى. مبارك الأب، إلخ." في أول عبارة بالقيد، يذكر كاتب المخطوطة دائمًا عنوان الكتاب. ثم يذكر متى تم الانتهاء منها: "هذا الكتاب تم الانتهاء منه وإكماله في يوم الخميس، الثامن عشر من الشهر المبارك كانون الأول لسنة 2041 لليونانيين المباركين، آمين." وحتى القرن التاسع عشر، كان نظام التقويم الذي يستخدمه السريان المسيحيين النظام البيزنطي اليوناني. وذكر الكاتب أنها: "كُتبت في عهد أبو الآباء ورئيس القساوسة مار إيليا جاثليق بطريرك المشرق، إلخ." وكُتبت "في القرية المباركة والمغبوطة، الراسخة في الإيمان المسيحي، القوش، قرية النبي ناحوم، والتي تقع بالقرب من أكثر الأديرة قداسة: دير الربان هرمزد الفارسي، إلخ. العديد من هذه المخطوطات كُتبت في قرية القوش، الاسم الذي يظهر في الكتاب المقدس. ويعتقد معظم الباحثين أن القوش المذكورة في الكتاب المقدس تقع بالقرب من فلسطين، ولكن هؤلاء المسيحيون العراقيين يعتقدوا أنها تقع في العراق. تم تقديم ادعاء مماثل بخصوص قرية النبي ناحوم. وهذا يقترح أن الكاتب كان يحاول أن يقيم صلة بين كنيسة المشرق والأشخاص وتاريخ الكتاب المقدس. ثم ذكر كاتب المخطوطة مكان مقدس قريب من قريته، كاتبًا أنها: "تقع بقرب أكثر الأديرة قداسة: دير الربان هرمزد الفارسي. إلخ." وهذه ممارية نراها في العديد من قيود الختام.

كنيسة القيامة، أورشليم

شكل 21

أخيرًا، يذكر كاتب المخطوطة اسمه، ويقدم نفسه على أن المتواضع جدًا، كاتبًا أنه رجل خاطئ وفاسد وأنه لوث هذا الكتاب. وهذا مثير جدًا للاهتمام؛ لأنه في المخطوطات الغربية يُهمِل أحيانًا كثيرة كُتاب المخطوطات أسمائهم. ولكن في هذه المخطوطات وبالفعل الكثير من المخطوطات الشرق أوسطية سيذكرون أنفسهم وسلالة عائلتهم: "ق. يوسف ابن ق. جيورجيس ابن المتوفّى ق. إسرائيل ابن ق. هرمزد من القوش، إلخ." وبعض من المخطوطات ستخبرك أيضًا عن الذي دفع ثمن هذا العمل، وها هو مثال:

وبعد ذلك فُوِّض واهتم بكتابة كتاب خميس، المؤمن المستقيم، إلخ. (في هذه الحالة هو شماس) ش. يوسف ابن ش. ماروجي Maroge. وكتبها مما يملكه للكنيسة المقدسة وضريح القديسة مريم الرائع، أم المسيح، الموجود في القرية المباركة المغبوطة، والراسخة في الإيمان المسيحي دِرغني Dergani، إلخ.

الشماس الذي كتب هذه، قَدِمَ من قرية أخرى وذهب إلى القوش؛ لأنه كان يوجد العديد من الكتبة هناك. وربما كان لديه هذا الكتاب مكتوب للكنيسة الموجودة في قريته. وهو كتاب الترانيم الذي كان على الأرجح مُعد للاستخدام الجماعي.

نسخة متأخرة من العهدة العمرية

شكل 23

تنفيذ البيعة—مباني الكنائس وممارسة الطقوس

كانت الكثير من مراسلات الكنائس السريانية مع الحكام العثمانيين عن الأماكن المقدسة أو عن ترميم الكنائس. واحدة من الأمور التي كانت بين السريان الأرثوذكس، كانت عن الكنيسة الصغيرة الموجودة في القبر المقدس بأورشليم، وهي موجودة أمام الكنيسة القبطية الصغيرة، والتي اعتقد الأرمينيين أنها لهم. وعلى الأرجح أن الصراع بين الكنيستين على الكنيسة الصغيرة، بدأ في الفترة العثمانية، ولكن ما زال النزاع إلى اليوم. (انظر شكل20، 21).

مخطط مبنى كنيسة القبر المقدس

شكل 20

وإليكم بعض الأمثلة لنصوص عثمانية (انظر شكل 22). كما ترون على اليسار الطغراء، وهي مونوغرام مرسوم كانت تستخدمه الحكومة العثمانية. وعلى اليمين ترون كيف وقَّع المسيحيون وثائقهم المهمة، وفي الوسط ترون وثيقة، وهذه الوثيقة كانت مهمة في أحد النزاعات بين الكنيسة والحكومة. وهذه الوثيقة تبدو وكأنها خريطة كنيسة وطريق ربما من أجل توضيح الموقف، ولذلك قد تكون التفاصيل القانونية واضحة. ومن المحتمل أنها ترجع إلى القرن التاسع عشر؛ لأنها تتحدث عن الملة السريانية، والتي تم تأسيسها فقط في القرن التاسع عشر.

هذا الخطاب (الوثيقة الوسطى في شكل 23) كتبها السيد مصطفى، الحاكم الإسلامي لمدينة كرزان Karzan، ويكتب إلى العثمانيين في

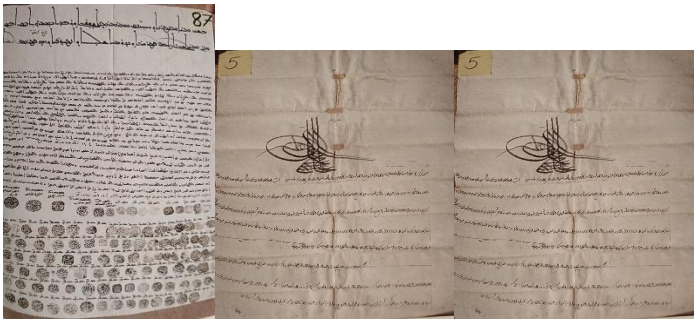

وثائق عديدة من أرشيف كنيسة أرثوذكسية سريانية في ماردين (في الوقت الحالي تركيا) (أكيوز Akyuy، نص 5-1737، 57 و87)

شكل 22

إسطنبول بالنيابة عن أحد الطوائف المسيحية، مبتدئًا كتابته بعبارة جميلة: "نأمل في استمرار وجود حياة الدولة المبجلة." ويكمل الحاكم:

مطلبنا استمرار وجود حياة الدولة المبجلة. إن الكاهن حنا مع أفراد آخرين من الملة السريانية التي تخضع لقرية جاتزان Gatzan التابعة لمدينة ديار بكر أتوا إلى مجلس الشريعة ورووا العريضة التالية: إن حجارة حائط الجانب (الغربي) والجزء الخارجي للكنيسة القديمة المعروفة باسم زيرا زيراك Zira Zirek، والتي كانت في المدينة المذكورة منذ وقت الغزو، أخذوا في السقوط لسنتين. وأنها على وشك الانهيار وأن تكون مهجورة. وإذا ظلت على حالها هذا لمدة عامين آخرين ستنحدر كليًا إلى الأرض. ومن الواضح أنه لن يتسنى ممارسة الطقوس المسيحية وتلاوة الكتاب المقدس غير الصحيح في الداخل. الحائط المذكور يحتاج إلى الإصلاح في الحال.

أصروا على ذلك وطلبوا عن طريق تقديم وعرض طلب إلى الحاكمية المُنعمة لديار بكر؛ من أجل إجازة تعديل وترميم الحائط المذكور إلى حالته السابقة بدون (تشييد) أي شيء زيادة عن حالته السابقة. بعد الفحص ضُبط ولوحظ أن الحائط المذكور للكنيسة سالفة الذكر في حاجة إلى الإصلاح. ومن خلال المعلومات التي تم الحصول عليها من بضعة أشخاص جديرين بالثقة من المسلمين عن حالتها القديمة، وُجد أن السابق آنفا هو واقع الحال. وهذه تم عرضها وتقديمها إلى حضوركم البارع والواعي بعد أذنكم. وبشكل أبدي، في هذا الصدد، المسألة الأخيرة تخص سيادتكم.

الموضوع الذي دعاءه من أجل استمرار وجود حياة الدولة المبجلة.

السيد مصطفى، حاكم مدينة كرزان (نص أكيوز Tekst Akyuz157، محدث).

هنا يمكننا رؤية بعض النقاط الجديرة بالاهتمام. إحداها أن الحاكم وضع طلب أمام الباب العالي في إسطنبول، وهو ما يدل على أنه مقتنع أن لهم دعوى. وهو يدعم هذا بتأكيده على أن المسلمين شهدوا بأن لهم دعوى. ويؤكد أن الكنيسة موجودة هناك منذ الفتح. وبمقتضى العهدة العمرية (انظر شكل 23) للمسيحيين الحق في هذه الكنيسة. مع ذلك يجب عليه أيضًا أن يوضح بأنه مسلم وليس مسيحي. وبالتالي يدرج جملة عن كون الكتاب المقدس غير صحيح. في الحكومة العثمانية لو أن المسؤولين الحكوميين تحدثوا عن المسيحيين والطقوس المسيحية سيؤكدون دائمًا على تعريف أنفسهم بأنهم مسلمون، ويوضحون أنهم كانوا فقط يستعرضون دعوة للمسيحيين. ويوضح الخطاب أن الحاكم لا يؤمن بالكتاب المقدس، غير أنه مع ذلك مقتنع أن لديهم قضية يجب تقديمها. وهذا عرض شيق جدًا، الذي يعترف بالحقوق والخضوع والتفاوض.